

الهجرة الكبرى في سبيل السلام

للأستاذ محمد محمود زيتون

... والذين تنوأوا الدار والايمن من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . .
قرآن كريم



لم تكن هجرة النبي عليه السلام إلا مرحلة من مراحل الدعوة إلى الحق والخير، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأذوه في شخصه وأهله وصحبه ، وطوى الزمن ثلاثة عشر عاماً ، وهم بين مضروب

ومشجوج ومغذب بالرمضاء نارة ، وبالحديد والنار نارة أخرى واحتل المذبذبون مكابهم في التاريخ ، وتلاأت صفحاته بأل ياسر وبلال وخباب وزينرة ، أولئك الذين ابتلوا فصبروا ، وامتحنوا فشكروا ، وهل الإيمان إلا الشكر والعبر

وإنها لكبيرة على النفس أن تحتمل من العنت والرهق ما لا تطيق ، وأكبر من ذلك أن يغير عشرات الرجال وقليل من النساء معهم ، مجاهل الجزيرة في سنوات : فإذا الوجه العباس يرتدي ساما سخوكا ، والقلب المتحجر يرفض بالرحمة والرفقة ، والمقل البليد يفتتح لنور الحق ، ويستجيب لصوت السماء

وكان طبيعيا أن يكون الجهر بالإسلام بمثابة إعلان الثورة على جميع الأوضاع المألوفة ، ولكن لم يؤلف عن العربي سكوتة

على الضيم والهوان ، فكيف بهؤلاء الصفوة المستنيرة يفتنون في دينهم ، ويستضعفون في وطنهم !

تلك المشكلة التي تتطلب الحل المقبول ، وإن كان الوقت لم يعطلها بالتردد والتخير كالمهود في أشباهها ونظائرهما ، فقد تم إعداد الحل السعف ، ومرعان ما نزل من السماء على لسان محمد ، ومضى أتباعه في الطريق المستقيم

ذلك بأن دعوة الإسلام ليس لها أن تنحدر إلى مخلفات الجاهلية فتقاوم الإساءة بالإساءة ، وتقابل العدوان بمثله ، وإلا كان دين الإسلام متناقضا مع نفسه : يتنزي الدم من يديه ، وتتساقط الأشلاء من بين شديقه

والحل الذي يستقيم مع روح هذا الدين هو « الهجرة » الرسومة في بدنها وختامها المليئة بمدخراتها للتاريخ إذا أعوزته الكسوف عن مواطن العبرة ، ومقلان الفخار ، وليس بدعا من الأحداث أن يهاجر محمد ، فقد سبقه لوط إذ هاجر بأهله ونزل بهم بأوثفكة . ولكن ما أسبب الهجرة من الوطن على المواطن الضيم

فأبال محمد وتأييمه تهون عليهم مكة ، وفيها بيت الله الحرام وسها الأهل والولد ؟ ألم يقف محمد في وسط المجلس يوم خرج مهاجراً ، والتفت إلى الكعبة فقال : « إني لأعلم ما وضع الله بيئا أحب إلى الله منك ، وما في الأرض بلد أحب إليه منك ، وما خرجت منك وغبة ، ولكن الدين كفروا أخرجوني »

وأمنت قريش في الأذى والفتنة من كل وجه ، ولما شكوا المسلمون إلى نبيهم وقد ضاقوا ذمرا قال لهم « تفرقوا في الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم » وأمرهم بالخروج إلى الحبشة « فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد » وخرج حزب الله

وتهامس الأعرار : إنه فرار ، واستدرك الدهاة: بل استنصار . حقا ، إنه فرار بالأمانة خشية الضياع ، لهذا قال النبي الرسول « من فر بدينه ، من أرض إلى أرض ، وإن كان شبرا من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم » ، وحقا إنه استنصار للدعوة من أتباعها فيما وراء الحدود ، ولكن هل سكنت نائرة من قال إنه فرار ، وهل

أجدى دهاء القائلين بأنه استقصار

وفر أبو بكر بدينه بسبب الله بأرض اليمن ، لولا أن أخذ ابن الدغنة له الجوار من (القارة) شارطين عليه أن يتعبد بداره ولا يستعملن ، ولأن أبو بكر قبيل ورجع فابتنى في داره مسجداً أخذ يصلي فيه ويقرا القرآن ويرفع صوته ، والبيكاه يظالبه ، والناس يتهافتون عليه مسلمين من كل صوب ، فلما كلفه صاحب الجوار قال له : E رددت عليك جوارك ، ورضيت جوار ربى »
وضربت قريش الحصار على شعب أبي طالب فلم يتمكن أهل النبي من البيع والشراء والمصاهرة ، وأضر الجوع بهم ، ولاسيما بزوجه خديجة ، وكادوا يهلكون من عند آخرهم ، وبعد موت خديجة وأبي طالب اشتد الأذى ، وأخذت المؤامرات تدبر في الظلام لاغتتيال محمد .

هذا وهو ماض في سبيل الدعوة ، لا يعلم من لقاء الحجيج في المواسم ، والاستكثار من القبائل ، بينما فراعنة قريش يحاربونه بكل ما يستفهم به قلوب مريضة ، ونفوس منحللة ، ومفاسد مستحكمة ، والأصنام تستبد بمقولهم أيما استبداد وما يكون لنبي السلام أن يهدم السلام ، وما ينبغي لمنطق الفرزة المقاتلة أن تستأثر فلا تستجيب ، ولكن التماسي بها هو للطلب السكريم ، والأمنية الكبرى ، فما هو إلا أن ترا كض المسلمون مهاجرين إلى يثرب تاركين المال والميال ، لم يجردوا سيفاً ، ولم يتكبروا رحماً ، بل تجردوا للسلام ، إلى حين ينتهم السلاح في أيدي الخصوم ، وحاشا لأهل الإيمان أن يطلبوا الثأر على نحو لا يشرف أقدارهم

لهذا قال أبو أحمد بن جحش في هجرته :

فكم قد تركنا من صميم مناصح

وناصحة نبيكي بدمع وتندب

رى أن ورأ نائياً عن بلادنا

ونحن نرى أن الرغائب تطلب

واجتمعت بدار الندوة نرات إبليس بزوات الجبوت والطلاغوت ، وانطقت في الحلال جذوة التدبير ، وانقطع حبل التفكير ، فما كان اجتمع قريش هناك إلا لاغتتيال محمد ، وذلك أيسر ما ينتظر من أصحاب الفراغ ، بل هو الشيء الذي لا تسمعهم القريرة بما فوقه

ولا أقل من أن يجد المدوم مصرفاً للضئينة المكتومة فيما دون غرضه المأمول ، أما إذا تركوا محمداً في وجهه إلى يثرب ، فإن له بها أنصاراً ، وإنهم لنا صرود ، وإنه لفاتح بهم مكة على أهلها عاجلاً أو آجلاً

ياله من يوم ! كلا تمكس من خيالهم وتحمدي كيدهم ، لا يستطيعون له صرفاً ، ولا يزيدون منه إلا تضيقاً على محمد وتنكيلاً بمن سلك سبيله

خرج صهيب الرومي بماله فغيره بين نفسه وماله ، فهجر المال ، وهاجر بالنفس ، وربح صهيب على كل حال ، وخسر هنالك البطلون . وخرج أبو سلمة ، ولما أرادت صاحبه أن تلحق به ومها طفليها ، خيروها بين ابنها ونفسها ، فتركت فلذة من كبدها في أيديهم ، وخرجت مؤمنة بأنه ودبمة في يد الله ، وفتنوا من فتنوا ، وحبسوا من حبسوا ، ولو لم يكونوا قد انشغلوا بهذا القليل لتبددت الهجرة تحت هاتيك الضغوط ، ولغفلت الدعوة آخر أنفاسها وأطلع الله رسوله على دار هجرته ، فأخبر بها صاحبه أبا بكر الصديق الذي طالما كان يستأذنه فيستأجله النبي حتى أراد الله لها « صحبة » في الهجرة الكبرى إلى الله ، وأعد أبو بكر ماله كله ليهاجر معه ، وتواعد مع النبي على ساعة الخروج من الليلة القارة بين الدوان والأمان ، الفاصلة بين الشر المهجور والخير المراد

وتحمجى على بالبردة الحضرية الخضراء ، ولزم حزب الضلال باب النار ، وسهدوا أبقانهم ، وكردوا أذهانهم ، فما هي إلا الخيبة التي لا بعدما ، على الرغم من الصفوف والسيوف ، وما هو إلا نصر السماء (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

ولبنا ثلاثا بفار نور ، والطلب لا ينقطع ، وكان أبو بكر يسمع القوم يتهامون ويتخافتون ، فيأخذهم الخوف من كل سبيل ، ولكن الذي أعمى بصائر الكفار عند خروج النبي من النار هو الذي ضلل حدسهم وهو في النار (ثانی اثنين إذ هما في النار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

وخرجا من غار الخفاء إلى غار الجلاء ، ومضيا على راحتيهما بين تصويب وتصديد ، وكما رأى أهل البادية أبا بكر سألوه عن هذا الرجل الذي منه فيقول لهم في توربة سادة (هذا الرجل يهديني السبيل) ، فلما وصل إلى الجحفة تحرك الحنين إلى مكة

أكبر « ونجاوت بصوت « لا إله إلا الله » حرف كل من لا يعرف أن هذه الهجرة الكبرى إنما جاءت لتوحيد الصفوف، ووحدانية العبود، ووحدة الكلمة، وتلك هي العناصر الأساسية التي لا بد من أن يتألف منها السلام

وتتابع المهاجرون أرسالا، والمسجد يقص بهم يوما بعد يوم والمسلمون والمؤمنون أخوين أخوين سواء في الهجرة أو الفصرة وإنه ليوم خالد إذ يجتمع بهم نبهم في هذا المسجد المبارك، ويسأل عنهم، فلم يزل يتقدم ويبعث إليهم حتى انتظم شملهم، ثم قال لهم :

— « إني محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدنوا به من بعدكم، إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا، ثم تلا (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وإني اصطفى منكم من أحب أن اصطفيه، وأواخي بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته.. قم يا أبا بكر .. » ، وقام أبو بكر فخفا بين يديه فقال له

— : « إن لك عندي بيدا، الله يجزيك بها، ولو كنت متخذنا خليلا لا تتخذنا خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضنا، فأنت مني بمنزلة قبيص من جسدى ». وحرك النبي قبضه بيده . — « إذن يا عمر .. » فدنا، فقال له النبي :

— : « كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص فدعوت الله أن يزيك الدين أو بأبي جهل، ففعل الله ذلك بك، وكنت أحبهما إلى الله، فأنت مني في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة. » وأخى بينه وبين أبي بكر في المسجد الذي أصبح بيت المحبة والتعارف، وصار المسلمون أرواحا مجتدة : إلى الله أسلمت الوجوه، وإلى السكينة توجهت القلوب، وخلف رسول الله انتظمت الصفوف

وأقبل سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف وقال له : يا أخى إني من أكثر الأنصار مالا، فأنا مقاسمك، وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما، فإذا انقضت عدتها فزوجها فقال له عبد الرحمن وقد هاجر ولا مال ولا أهل : يا أخى بآرك الله لك في أهلاك ومالك

كل ذلك من إشباع الإيمان الذي انبثقت عنه الهجرة، ومن وحى المسجد الذي قال فيه النبي الكريم « من ألف المسجد ألفه

في جوانح نبي الوطنية، فتذكر ما كان من قریش معه وهو يدعوهم إلى دينهم، ومن ثم نزل عليه جبريل بقول ربه (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

ولم يرض على رحيلها ثمانية أيام حتى أشرف النبي على المدينة فقابله أهلها، والبشر تندى به وجوه الرجال، وبالثناء تتجاوب دغوف الجوارى، وبالشمز تتعالى أناشيد الفتیان، وبالحراب تنتوح العباب الأحباش

والأنصار يتسابقون إلى خطام الناقة ويقولون : « هلم يا رسول الله إلى المنمة والقوة » وهو يقول لهم « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ولم تلبث إلا قليلا حتى أناخت، لا في (المنمة والقوة) ولكن في مبرك « الأمن » ومناخ « السلام » حيث الرید الذي سهل وسهيل ابني عمرو والذي اختاره نبي السلام ليكون منذ الساعة الأولى له بالمدينة دار السلام

وتفرق المهاجرون على دور الأنصار، ونزل النبي مع رحله عند أبي أيوب الأنصاري، واجتمع بهم جميعا بدار سعد بن خيثة، وأعلن « دستور السلام » منذ اللحظة الأولى فقال :

« يا أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام »

وأصرح إلى موادعة يهود المدينة ليستل السخيمة من نفوسهم فلا يمكروا صفو السلام، وعقد معهم مهادنة كتب في ختامها « وإنه لا يجوز هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكان له الأمان ولليهود التأمين، ومن نكث فأنما ينكث على نفسه

ثم التفت إلى الجماعة ينظم أمرها، ويجمع شملها، ويؤلف وحدتها، فابتنى « المسجد » ليكون بمثابة دار السلام لطلاب السلام، وكانت بناؤه نقطة التقاء الهجرة والنصرة، فسرعان ما أصلح النبي فيه العلاقات بين الأوس والخزرج، وبجعلان ما نزل فيه التأييد من السماء « لسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين »

ودوى صوت بلال بالأذان للاستراحة فكان دعاية لانتصار الهجرة وإذاعة لانتشار التوحيد، ومتى جلجلت البطاح بصوت « الله

كان معه من المهاجرين وقال : « يا مشر المسلمين ، الله الله ، اتقوا الله ، ابدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم .. »

فعرفوا أنها من نزع الشيطان وكيد العدو ، فبكوا وتماقوا ثم انصرفوا مع النبي وقد نزل عليه (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يمتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون « وإذ يقول نبي الرحمة لا ترجموا بمدى كفرارا يضرب بعضكم وجوه بعض « إنما يدل على أن الكفر هو المدون وأن الإخاء هو السلام بل الإسلام الذي هو أن يسلم لله قلبك وأن يسلم الناس من لسانك ويدك « ومضى على النبي عامان نشر فيهما لواء السلام على أهل المدينة واطمأنت فيها النفوس ، وأصبحت آيات القرآن مخاطبهم (يا أيها الذين آمنوا) وقد كان الخطاب بركة « يا أيها الناس « فما كان هذا التغيير إلا عقب الهجرة التي تصافت فيها الصدور ، وتوارت الشرور

فلما تأب اليهود والمنافقون والمشركون على دعوة السلام ، لم يكن بد من أن ينزل على محمد الإذن بالجهاد (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم قادر) فكان الجهاد من لزوم ما يلزم السلام ، شأنه في ذلك شأن الصفاء لا يرتجى إلا في فجرة العواصف والأعاصير ، ولا بد دون الشهد من إير النحل واليوم ونحن على باب سبعين عاما بعد ثمانمائة من هذه الهجرة الكبرى ، نرى أن فيها للعالم كله العبرة كل العبرة ، فما أحوج الإنسانية إلى هجرة السوء من كل لون ، ونصرة الحن في كل حين ، ودفع الشر والنصام بنشر الخير والسلام

محمد محمود زرينشور

الله « ، وقال « إن للمساجد أوتادا : الملائكة جلساؤهم ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادرهم ، وإن كانوا في حاجة أعانواهم ، جلس المسجد على ثلاث خصال ، أخ مستفاد ، أو كلمة حكمة ، أو رحمة منتظرة »

وتفياً للنبي ظلال السلام رارفة منذ نزل بين الأنصار ، لذلك قال في مقام الذكر والشكر « لولا الهجرة لكنت من الأنصار » الذين نصرهم وأكرموا من ممة « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. »

ويتأ كد هنا لكل منصف أن الهجرة الكبرى لم تكن إلا إسماء بالأرواح قبل أن تكون انتقالا بالأشباح ، وبذلك تميزت « الهجرة الكبرى » إذ ارتفعت فيها الإنسانية من الهاوية إلى العالية ، وخالت فيها وراها فريزة الوحش ، وشريمة الغاب ، ومضت في تصديدها إلى القمة ، وصدق الشاعر

إذا ما علا المرء رام الملا ويقنع بالدون من كان دونا

وسئل النبي : ما أفضل الإيمان ؟ فقال : « الهجرة » . فسئل وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » . لهذا هجر المسلمون عناصر السوء قبل أن يهاجروا من الضلال والعدوان في بلد أراد الله فيه للناس الأمن والسلام ، وفيه البيت الحرام ، (ومن دخله كان آمنا)

وظل النبي يحرس السلام ، في يقظة وحكمة ، فقد قتل قتيل بالمدينة ولم يعرف ثأنته ، فصعد النبي المنبر وقال « يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لمذهبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء »

ومر شاس بن قيس حبر اليهود بالأوس والخزرج وقد اجتمعت كلمتهم ، فغاظه ذلك الائتلاف بينهم فقال : قد اجتمع بنو قبيلة ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، وأمر فتى من اليهود بالهدس بين الأنصار ، وإثارة ما كان بينهم من معاولة بمصاولة يوم بعلت ، وظل بهم حتى تنازعوا ونواعدوا على الحرب ، وخرجوا بالسلاح واصطفوا للقتال

وعم بذلك حارس الأمن وحامي السلام ، فخرج إليهم فيمن